الضوء الأزرق

حسين البرغوثي

٢

غريب كم يبدو المكان كمصيدة، أحياناً، وكم تبدو المصيدة متاهة، أحياناً أخرى. التقيت به ذلك الصوفي من قونية في شتاء ١٩٨٦، وكان بحراً، وكنت أعتقد أن له قاعاً، ولكن لا قاع هناك، بل مياه تنزل، مهما كانت صافية، في أغوار لم يسبرها غير خالقه. ولعل أدق تعبير عنه ما قالته سوزان لي في سينماتيك «الوهم العظيم» : «بري؟ كائن مثل الـ«كينغ كونغ»، أكبر من الحياة !».

طاقته مرعبة : مرة تكلم من الثانية بعد الظهر حتى السادسة صباحاً. ومرت عليّ ليال متوالية معه بلا نوم أبداً، أكثر «ليالي الإقلاق» في حياتي توتراً. كدت أنهار، وشعرت بشبه دوار من القهوة الأميركية، والتدخين، والتركيز. وعند نقطة خفية ما لم أعد أحتمل، قلت «سأذهب إلى بيتي، فلم أنم من قرنين».

كان يلف بأصابعه لفافة تبغ من نوع «عثمان». توقف باستغراب، وقال بلذة تشبه رقصات الإله ديونيسيوس وهو يعبر أودية الربيع والينابيع البرية والشمس، وتتبعه نساء عرايا يرقصن وقد فقدن رشدهن من السكر، «نحن من الخالدين يا رجل، ولم تحدثني عنك بعد !» وكأنه يؤنبني على فكرة النوم نفسها كفكرة فانية. فرحت لأنه شملني بقوله «نحن»، أي أننا من عالم متفوق واحد، ولأنه طلب مني أن أحدثه عن نفسي حديث رجل خالد مع رجل خالد آخر. انتفخ صدري من الزهوّ، فنظر إليّ بيأس، وقال: «لا أحب حفلات تهنئة النفس، يا رجل !». كنت أنتفخ من «المديح»، وأنكمش من «الهجاء»، دائماً، وصدمني. فخرجت للتسكع في الغابة الصغيرة المحيطة بالحرم الجامعي.

قعدت على حافة دائرية لبركة فيها مياه داكنة وقذرة تطفو عليها أوراق الشجر وأضواء النيون، ويسبح فيها البط بهدوء؛ بركة حول نافورة خامدة من عمود معدني واحد. كنت منهكاً، وانهمكت في مراقبة البط، وفجأة، وأنا في كامل الوعي، رأيت رؤيا مذهلة وغريبة :

نجوم صغيرة، مضيئة بنور يبدو وكأنه يأتي منها، لا من خارجها، ذات سطوح بركانية سوداء تتخللها تجويفات صغيرة، سبعة نجوم أو ستة، في أعلى الكون، في صباح غامض يشبه وعداً لم يولد بعد، فيه خضرة شفافة، وفوقه عتمة سوداء لامعة كمرآة، والنجوم مغسولة قبل قليل بماء ساخن وصابون، وبدت قريبة، طازجة، ونظيفة، يتصاعد منها بخار ساخن. وبدا لي أن جسمي هو تلك العتمة العليا التي تتأمل الكون تحتها، حين لم تكن هناك، بعد، أرض ولا سماء. هززت رأسي مرتين، ولكن عبثاً، بقيت الرؤيا معلقة في عينيّ.

وباغتتني رؤيا أخرى بعدها كان مقدراً لها أن ترافقني لسنوات : سماء عالية تشبه لوحة مدهونة بزرقة فاتحة، تميل هنا وهناك إلى البياض الكالح، وقد تشقق الدهان من قدمه، ورأيتني تحتها نسراً رمادياً يحلق عالياً، ويطير مائلاً، بسرعة فائقة، ويرى أرض ذاكرتي كلها، مناخها، تضاريسها، ومن بدايتها، وفقط ينظر، بحياد لا عهد لي به، ولا اسم له عندي، وبدا وكأنه لا يتدخل في شيء، بل يرى، فقط يرى، ويفهم، ويمر. ورآني هنا، على حافة النافورة، فوقف قليلاً في الزرقة، ونظرت للأعلى، والتقت أعيننا، وبدا وكأنه يتأملني بصمت، ثم واصل طيرانه نحو ما لم أكنه بعد..

حيرتني هذه الرؤى، وحيرني بري نفسه أكثر منها. ومن لم يغيّرني بعمق لم يحيرني بصدق. على كل، في تلك الليلة رجعت إلى بيته، وحدثته عن... عن ماذا؟

عن بعض مما رأى النسر ؟

... وأنا طفل في الجبال، كنت أحب أن أرعى بغلتنا التي كان أبي لقبها بـ «أم اسكندر»، ويتبعني حيث أذهب كلب عمي، وأرتاح في فيء الزيتون، وقدماي في برودة التراب، وأحدق غرباً، في البعيد، نحو البحر الأبيض المتوسط. لكنني لم أر البحر عن قرب أبداً، فقد احتلت إسرائيل السهل الساحلي كله قبل ولادتي، وسرقت مسالك الجبل إلى البحر.

عزّ الظهيرة، صمت بري عميق، أزيز صراصير، والفيء، وجنائن الزيتون، في جبال تتكور سفوحها بنعومة أنثى، وتنبسط قممها انبساط الحلمات. هذا هو تكوين ذاكرتي، طقسها الأسمى، وتضاريسها. صيفاً من الوادي لا أرى إلا زرقة عالية، وصخوراً، وشجراً قصيراً أميل للرمادي والبياض منه للغابات، ولا أفق أبعد.

ولما رأيت البحر لأول مرة في بيروت، جلست بعيداً عنه، على مسافة، مغموراً بالهدير، وبالرائحة الرطبة، وبضبابٍ أزرق، ودهشة زبدية بيضاء، وأحببت أن أمشي على الزبد،

أمشي، وأمشي، حتى لا أرى إلا ظهر الموج يعلو ويهبط قادماً مما وراء الأفق. في الموج أنوثة الجبال، ولكن الجبال ثابتة، أساس وعيها ثباتها، واللّه في قرآنه الكريم قال «وجعلنا الجبال أوتاداً»، والأوتاد مثلثات، أما الموج فهيئات لا حصر لها. والأهم اللون: في الجبال لا زرقة إلا في السماء، وفي شبابيك البيوت القديمة ليلتها، وسحبتني هي منه. لم أر قوة موت بهذا الشكل من قبل، ولا شممت رائحة كرائحته، ولا سمعت هديراً أسود كهديره، ولا قلقاً يشبه هذا. وبدت لي زرقته المشمسة الأولى، زبده، مساحاته، وضبابه، خماراً لغرائز موت بدائية. أو ليس البحر إشارة لفصام شخصية كل ما هو جميل في هذه الدنيا، لفصام صاغته العرب كلها في كلمة واحدة. «رائع» : كل ما يلقي الرعب في الروع، ويرتجف القلب منه، ويتزعزع به، وما يلامس الجمال المطلق أيضاً؟

وصار البحر يطاردني في أحلامي، لسنين، ولكن لم يتوحد طفل الجبل بالبحر، لم يصيرا واحداً. كان يستيقظ من حلمه وهو يرشح عرقاً مالحاً، وكأن البحر يرشح منه، من جسده، من إبريق فخار يدعى «جسده». لم أر البحر الأبيض إلا وحدث لي شيء يشبه هذا، به مسّ من جنون. حتى عندما رأيته من «فوق»، وأنا طفل لم يبلغ الرابعة بعد، مسني جنون ما.

ففي أواخر خمسينات القرن الماضي، تدخلت قوات المارينز الأميركية في الحرب الأهلية في لبنان. ورحلونا أنا وأمي وأبي من بيروت، على ظهر طائرة كـ«رعايا أجانب». نظرت من شباك الطائرة «تحت» : فرأيت أبنية حمراء، وبيضاء، وصغيرة، تشبه قطع «ليغو»، بينها شوارع سوداء ملتوية تتراكض عليها سيارات صغيرة وملونة، وأحببتها. وتخيلت بيروت «مدينة أطفال». وأردت أن أنزل فيها وألعب. حولها ظل أزرق، لا اسم له عندي، ساكن، وشاسع، ولم أدر ما هو : كان البحر. هذا هو أول ذاكرتي، أولها المطلق، قعرها، قبله لا أذكر شيئاً.

مسني عشق لمدينة أطفال سرية، لم يحدثني أحد عنها، ولم أحدث أحداً، كتمتها بيني وبيني، وأحببتها، وكنت أبحث عنها في الجبال. إنها موجودة، ورأيتها، أنا متأكد، ولكن أين؟ كنت أسحب بغلتنا ويتبعني حيث أذهب كلب عمي، وأبحث عنها. لم أجدها في فيء الزيتون، ولا بين الأودية، ولم أرها حين كنت أحدق غرباً نحو البحر. كنت أركب «الباص» من قريتنا إلى رام الله، وأجلس في جهته اليمنى، وأراقب مسالك الجبال كيلا يفوتني شيء، وأبحث عنها، وكنت أرجع فيه وأجلس في الجهة اليسرى، وأبحث عنها، ولم أجدها، حتى في «إبريل، أقسى شهور السنة، حين تمتزج الذكريات بالرغبات».

بعد خمسة عشر عاماً كاملة أدركت أنني كنت أطارد وهما بحرياً آخر. كنت أيامها طالباً في جامعة الإقتصاد في بودابست، وأسكن على ضفة نهر الدانوب، وأستمع إلى موسيقى كلاسيكية أوروبية، وأتخيل نفسي في جبال الطفولة : كانت زرقاء غامقة، وكنت أراني في قعر واد هناك : وجسمي كتلة من هلام أشبه بجنين أزرق يحاول أن يولد، ويتحرك،

وينبض كله كقلب كبير، وله صوت، ولكنه يبقى هو هو: هلاماً في جبال زرقاء. وبدا وكأن هناك «زحفاً أزرق» في روحي، إضاءات تشبه ظلال البحر. أيامها سمعت بموسيقى «الدانوب الأزرق»، أيضاً. ولكن لم أعد أحلم لا بمدينة الأطفال ولا ببحر يطاردني. في المطاردة حركة، طاقة، حيوية، غضب، حرية، دراما، هوج، جنون. ولما هدأ البحر، غرق كل هذا الغضب مثل كرة من اللهب في الماء، وأين ذهب هذا الوحش الأزرق العجوز، فاقد الحيوية هذا، سياق الرماد وسيادته الأشمل؟ اختفى في «معدتي»، على ما أعتقد، وفي عضلات جسمي، وصار «طاقة وضع»، وبدأت أتحول إلى صحراء بيضاء من ملح يلمع في الظهيرة مثل مرايا السراب.

واشتدت بي رؤى الجنون. كنت أتخيلني في مدينة فارغة تماماً من أي إنسان، مدينة من نحاس أحمر، كنت قرأت عنها في «ألف ليلة وليلة»، بأرصفة من نحاس، ودكاكين من نحاس، وشجر من نحاس، وأحياناً، في الليل، أتجول فيها والأضواء خضراء، خضراء جداً، «وحيث نظرت مرايا، مرايا، مرايا، وما من أحد. تجولت حول ضواحي الجنون وعاشرت سكان هذا البلد». وأتسكع في الضوء الأخضَر، وأرى «حول الزوايا» تماثيل نساء عاريات من جبس له لون أصفر متسخ. تماثيل تحدق فيّ، وتطاردني نظراتها. لم أكن «أحلم» بها، كنت أراها في ذهني في اليقظة، محض خيال فقط، ولكنها تسكن أغواري.

أو كنت أحلمني مسجوناً في برج زجاج دائري مغلق، على قمة جبل يطل على جبال من غابات خضراء مشمسة، فجأة تطلق يد خفيّة رصاصة في رأسي، ويتبعها طنين خفيف، وأهوي، ويتكسر البرج، منفجراً نحو الخارج، وببطء، كتصوير بطيء في السينما، ويهوي، وأنا أنظر نحو الغابات والشمس وأهوي معه وفيه. وكنت أرى مصابيح ملونة، خضراء وصفراء وزرقاء، مدفونة تحت التراب الذي أمشي عليه. ولكن لم أكن خائفاً من الجنون، ولم يخطر ببالي أنني سأجن. وربما كان هذا دليل جنون.

كان عقلي قد اتسع وراء أي حدّ يمكن أن يكون «معقولاً». في فترة لا تتجاوز ثلاث سنوات كنت قد تعلمت كثيراً جداً في حقول متباعدة جداً : الفلسفة، علم النفس، الإقتصاد السياسي، الأدب، التاريخ، الأساطير، الرياضيات العليا، الفن المعماري، النقد الأدبي، السياسة، مالية الدولة، الموسيقى..

رجعت لزيارة أهلي في فلسطين (في صيف ١٩٧٥). عزّ الظهيرة. تراب رمادي يثور منه غبار حول خطاي. للناس جلد برونزي لفحته شمس المتوسط، وشعر أسود أو أشقر لامع، ملامحهم غريبة، ضحكاتهم، أسنانهم، وحتى اللغة العربية التي يتكلمون بها غريبة. فحتى في أحلامي كنت أحلم باللغة الهنغارية. كان وكأن إدراكي انقلب تماماً : أهلي هم «الغرباء». وبدا لي هؤلاء الناس ـ أقاربي، أهلي، أصدقائي ـ وكأنهم جاؤوا من العصر الآشوري، أو من كهوف ما قبل الذاكرة. وانتابتني نوبة فقدان إدراك : لم أتعرف، مثلاً، على شاب قصير وسمين وأشقر، يضحك، ويؤشر، ويسأل، ويجلس مقابلي. رأيته،

في حياة سابقة ربما، ولكن أين ؟ ومن هو ؟ بعد نصف ساعة لمع في ذهني اسمه : «الزير» : ابن عم لي، تربينا معاً، منذ الصغر، وذهبنا للمدرسة معاً، وأكملنا التوجيهية معاً، افترقنا ثلاث سنوات فقط، ولم أتعرف عليه. لم أكن متأكداً مما أرى، فسألته : «هل أنت الزير؟». نظر إليّ بعدم فهم كامل لمدة، ثم قال : «آه، أنا».

طردني أبي من البيت بعد يومين من وصولي : لم أتعرف عليه كـ«أبي»، ولا على بيته كـ«بيتي»، ولا حتى كـ«بيت». تخاصم كعادته مع أمي فرفضت التدخل. وقلت له «اعتبرني في فندق، ولا دخل لي بما يحدث فيه». فطردني. ورجعت لبودابست. قبل هذه الزيارة كنت «أحن» إلى «وطن»، و«بيت»، وبقاع في الذاكرة تشكل «مرجعية» لي في المنفى والمتاهات، إلى شيء ثابت، دائم، لا يمكن أن يتغير أو يتم «فقدانه». كنت كمن يعيش في بلاد مبنية على ظهر حوت، فيها نخل، وبحارة، وأسواق ذهب، وعبيد، بلاد ـ متاهة، ولكن على الأقل ثابتة، تحتها ثابت، وفجأة تحرك الحوت نحو الأعماق، وبدأ كل شيء يغرق. الفكرة عن «الثبات» غرقت. وكل عالمي صار بحراً أهوج لا سواحل له، يسكنه قراصنة على ظهر السفن.

قررت ترك الجامعة والسفر حيث أمكنني السفر. قالت امرأة هنغارية ناضجة في مكتب رئيس الجامعة : «هل قرأت رواية حرب وسلام؟» قلت : «لا. لماذا؟». قالت «أنت تشبه شخصية فيها تدعي بيير». قلت : «لا أعرفه». وخربشت بقلم رصاص خرابيش ذات تكوين يشبه الدوامة، وقلت، مؤشراً إلى نقطة في وسط الدوامة، «أنا تقريباً هنا». قالت جملة لن أنساها أبداً : «ما دمت تعرف تقريباً أين أنت، لا توجد مشكلة بعد. يوماً ما، ربما بعد ربع قرن، ابعث لي برسالة عمّا حدث معك. أحب أن أعرف».

قرأت «حرب وسلام»، وأحببت بيير هذا : يشبه شقة في حرب، يتكسر الدرج، وتحترق الشبابيك، وتتخلع الأبواب، ويبقى دائماً في بيير جناح لم يمس بسوء، وصالح للإقامة. بيير، هذا الذي يتسكع في الحرب على الجبهة، بين المتحاربين، محتاراً من الروس والفرنسيين معاً، وعندما يقبض على جندي فرنسي لا يدري من هو الذي أسر الآخر منهما، بيير هذا أحببته.

›

بعد ثماني سنوات كاملة، وصلت هنا، إلى سياتل، في السنة الماضية، في ديسمبر ١٩٨٥ تحديداً، لدراسة الأدب المقارن في جامعة واشنطن، ثالث جامعة أدخلها. وصلت قبل عيد الميلاد بقليل، ولا شيء كي أفعله بنفسي، ففكرت في كتابة رسالة لها، ولكن العنوان ضاع.

سكنت في فندق «جمعية الشبان المسيحية»، قرب الميناء، وصرت أتسلى بمراقبة العابرين فيه. مرة دخل من باب الزجاج الخارجي إلى الـ«لوبي» شخص مختل عقلياً، يكلم نفسه، ويؤشر، ويضحك، ويغني على ليلاه. فجأة اتجه نحوي وانحنى مرتين أمامي، وقال: «متأسف يا مستر، فعلاً متأسف، جداً متأسف، جداً، جداً». لا أعرفه، ولم أره من

قبل، ولا أدري لماذا يتأسف، ولا لماذا تخيلني راهباً كاثوليكياً يعترف أمامه بخطاياه. «حالة فضائية»، علق عامل كهرباء أميركي يلبس بنطلون كاوبوي ويشرب البيرة قربي. أعجبني التعبير : «حالة فضائية». وعلقت على كلامه : «ويسحقها شعور غامض بالذنب».

وهذا أيضاً يسحقني. فعندما مات أبي في أواخر سبعينات القرن الماضي، بجلطة في الدماغ، مددوه في نعش من خشب طبيعي، قديم، في كفن أبيض. وقف أهلي وأقربائي لوداعه صفاً واحداً، كل يلقي بنظرة أسى عليه، أو يقبله على جبينه. أختي ـ تلك التي غسلنا شعرها بماء البحر في «الحمام العسكري» ـ ألقت بنفسها عليه، وناحت، وجروها عنه بالقوة كيلا تنهار تماماً.

وجاء دوري. وجهه أصفر باهت، وفيه غضب قديم، وبياض شبحي ما، وبقع خضراء داكنة وغريبة بدت لي متعفنة، واستوقفتني، فوقفت كتمثال حجر، ولا حركة، ولا قبلة. دفعتني أمي من الخلف، ولم أتحرك. وقلت لنفسي لا أريد طعم الموت على شفتيّ ما دمت حياً يرزق، ثم مشيت بعيداً. مات ولم أقبله حتى في نعشه، وبدأت أشعر بذنب يشبه أغنية «بلوز»، زرقاء، موجعة، متضورة، مسجلة سراً على شريط «شفتيّ». هل سمعت عن شفاه تشعر بالذنب؟ هذه شفاهي: ولو رسمتها لكانت بمزيج غريب من الأخضر والأصفر فيه بياض جاف ومتشقق. صرت أخاف من الكلام، وأخاف من الصمت. قالت لي رسامة فرنسية مرة : «أنت تخسر في الحالتين : إن تكلمت وإن لم..».

وصرت أفر من نفسي، ومن كلامي. بعد موته بأشهر وجدتني في مدينة أخرى وقارة أخرى وزمن آخر : «أيوه»، الولايات المتحدة ١٩٧٩، أتزوج من امرأة منفصمة الشخصية تدعى «ماري» (اسم مستعار).

التقيت بها في صالون فندق. كانت تدفع أجرة شقتها من التأمين الإجتماعي، ولا تقدر على العمل أو التكيف، وحيدة تماماً، ويهيمن عليها ماضيها في نيويورك. وعندما تأتيها «نوبة هلوسة» فصامية كانت عيناها تتسعان خلف نظارتها الدائرية، وتبدو وكأنها رأت شيئاً خفياً، فتنظر يمنة ويسرة، ثم تتركني وتذهب إلى غرفة أخرى وتغلق الباب. سألتها عمّا يحدث في تلك اللحظة قالت بأنها تسمع «مجرماً» يهددها بـ«لكنة نيويوركية» من داخل «جهاز التدفئة». وأحياناً تسمع الماء في الحمام ينذرها من شيء سيأتي. وكانت تحلم حلماً متكرراً بأنها تركض هاربة وحافية تحت زخات مطر شديد فوق جسر معزول فوق نهر ما، ويلمع البرق حولها، ثم يقول لها الرعد، بلكنة نيويوركية : «عودي للمسيح لنيل الخلاص». حللت أحلامها واستنتجت أنها تعيش انهياراً نفسياً ناتجاً عن فقدان إيمانها الديني، في بلد ينتج فصاميين كما ينتج ساندويشات. زرت مع ماري المستشفى الذي تتعالج فيه. وفي ممراته المضاءة، والنظيفة، وفي صالات استراحة بتلفزيونات ملونة وزهور اصطناعية، رأيت بشراً، إن جازت التسمية أصلاً، تدهورت حالتهم إلى

«مزيج من الأشباح والنباتات»، يسمونهم بالـ«خضروات» هناك. في «الحالات الفضائية» يبدو وكأن الله أو القدر أو أية قوة أخرى حشر مريضاً في مركبة فضائية وقذفه نحو سكان الفضاء السحيق، أو أن سكان الفضاء السحيق أنفسهم بعثوا للأرض بكائنات من عندهم، ولكن «الخضروات» تسكن في عالم سفلي تحت الأرض، في درك من جحيم دانتي، درك خاص بمن صار «تحت حيوان وفوق جماد»، مزيج من الأشباح والنباتات، كما قلت، كنت أحسبه يسكن في خيال السينمائيين فقط. (لاحقاً رأيت فيلماً مذهلاً عن «الخضروات» يدعى «أويكننغ» أو «اليقظة».).

وحكت لي ماري قصتها. فرت وهي طفلة من بيت أبيها وأمها، وتشردت في الشوارع، ثم انتهت متطوعة وفاعلة خير في «كنيسة» ريفية مغمورة : ترتب الزهور الصفراء والحمراء وأية ألوان أخرى يتبرع بها «المؤمنون» في باقات وتوزعها على منعطفات الطرق وأبناء السبيل. بعد سبع سنين من «فعل الخير»، واعترافاً بتقواها، نقلوها من كنيستها الريفية إلى مقر الكنيسة المركزي في مدينة المتاهات العظمى : نيويورك. ووجدت «راهبة الزهور» نفسها، بعد سنين من العيش على «صليب من الورد»، ليس في «كنيسة»، بل في مركز يدير شبكات من البغاء وتوزيع المخدرات، ومن جملتها شبكة من «الكنائس». حاولت الهرب فحقنوها بمخدرات ثقيلة على ما يبدو، واعتقلت لسنين أخرى في المقر، وفي قصر فخم، بكلاب حراسة وبرك سباحة، وحدائق، وانفصمت شخصيتها، فأخرجوها حين صارت حطاماً، ليتولى أمرها «خبراء النفس»، وتحديداً خبيران : أمها وطبيبها.

عرضت عليها أن نتزوج، إما يأساً من الحياة، أو لأنني كنت ألعب دور مسيح يوزع من فوق صليبه زهوراً على راهباته، أو لأنني كنت أريد امرأة في الليل بأي ثمن. فكرت في «سحب كلامي» بعدها، فقطبت حاجبيها، وبدت وكأنها تجد صعوبة في التركيز في نقطة في ذهنها، وأخذت شفتاها شكل منقار من لحم أبيض. شعرت شعوراً ساحقاً بالذنب والشفقة عليها وقلت بأنني أمزح. ربما كنت أحدس بأن شخصيتي ستنفصم، قريباً، إن وفقني الله، وقلت بأنني «أمزح». تحسنت حالتها بعد الزواج، جزئياً لأنني كنت غرقت سنوات في «علم النفس»، وأعرف كيف أتعامل معها، وجزئياً لأنني أنا نفسي «حالة فضائيةً».

دعتني أمها وطبيبها لعشاء فخم ذات ليلة، وسألاني «كيف تعاملها؟». أرادا فهم كيف تحسنت حالتها فصارت تطبخ، وتركض، وتبحث عن عمل، أي بدأت بترميم ما يدعوه فرويد بـ«الأنا»، ولم تتحسن عندهما. «كيف تعاملها؟». قلت : «كإنسان». ولم يفهما مغزاي : هل أقصد أنني أنا نفسي «إنسان»، أم أنها هي «إنسان»، أم ، كاحتمال بعيد، أنا وهي معاً بشر، ولو كفرضية.

كانت تتكلم في حلمها، وتهذي عن «طائرة هليوكوبتر» ما، ولم أفهم هذه الطائرة بالذات. من تلميحات عدة فهمت بأنها تتمنى أن أكون غنياً معه طائرة «هليوكوبتر».

كنت ولم أزل مثقفاً معدماً. فاشتريت لها شيئاً آخر: «لامبة» زرقاء، غامقة الضوء، علقتها فوق سريرها في غرفة النوم. وتحت ذلك الضوء كنت أراقبها وهي نائمة تهذي، وتحلم أنها امرأة أخرى، تدعى «ميندي»، تصير امرأة أخرى، بصوت آخر، وبأحلام أخرى، وتضاجع رجلاً آخر، وتبكي في الحلم، وأنا أدخن، وأحدق في الضوء الأزرق، وأسمع. فهمت كثيراً من هذياناتها إلا قصة هذه الطائرة : من أين تأتي لتهبط في حلم، ولماذا، ومن هي ميندي هذه؟ حتى دعتني إلى حفلة في بيت أمها.

بيت لواحدة من الطبقة الوسطى، حوله حديقة واسعة من عشب مقصوص محاطة بسياج من خشب قديم. فكرت بالتجول هناك قليلاً. كان ذهولي تاماً حين أتت طائرة هليوكوبتر وهبطت في الساحة قربي، فابتعدت من قوة الهواء والهدير إلى منطقة قرب السياج، وراقبتها. نزل عن درجاتها شاب أنيق ببدلة سوداء، وفتاة شقراء، حرة وجميلة ولطيفة، وخرجت ماري من البيت وركضت للطائرة، وتعانقت مع تلك الشقراء. طقوس غريبة : رفعت تلك الشقراء قدم ماري وقبلت قعر حذائها. وعرّفتني على نفسها : «ميندي، أخت ماري». يا إلهي، لم أصدق عيني : ماري تحلم أنها أختها !. وتبرعت أمهما بتعريف ميندي عليّ قبل أن أعرفها بنفسي : «وهذا حسين، زوج ماري، وطبعاً، ليس شحاذاً». لو كنت شحاذاً لخبأتني في خزانة من أمام المليونيرة!.

كنت لاحظت أن ماري تبدأ جوابها عن أي سؤال أسألها إياه بـ «طيب. قالت أمي»، أو «طيب. سألت أمي...» «ما رأيك في الزهور الصفراء؟»، «طيب. سألت أمي»، «وما رأيك في الجليد؟»، «طيب. قالت أمي». عقل ببغاء. وأبوها يكرر صيغة واحدة كحل لأية مشكلة، إن احتاجت أن تسهر معه ساعة، فقط ساعة، سيقول «ماري، يا حبيبتي، تشعرين بالوحدة، وهذه مشكلتك الخاصة»، وإن سمعت مجرماً يكلمها من «جهاز التدفئة» بلكنة نيويوركية، وتلفنت له في حالة هستيريا، سيقول : «ماري، يا حبيبتي، تسمعين مجرماً من نيويورك، وهذه مشكلتك الخاصة». وماري هذه فردية جداً، كأبيها. مرة جن جنونها لأنني نسيت فنجان «قهوتي» على الطاولة في المطبخ. «أنا لست خدامة لك»، صرخت وهي ترجف. صعب في عوالم غارقة في فرديتها أن أقول «طيب. سأنظف الطاولة»، فهذا فيه تنازل عن «فرديتي» أنا، أمام فرديتها، وصعب أن أقول «طيب. سننظف معاً»، فهذه «مشاعية» سائبة، وصعب أن أقول لها «نظفي أنت»، فهذا اعتداء على فرديتها، فاتفقنا على أن أنظف «نصف الطاولة» الخاص بي، وهي تنظف النصف الآخر، حتى الطاولة انفصمت شخصيتها.

سافرت إلى شيكاغو أيامها. على باب غرفتي في الفندق، من الداخل، زردان أو حتى ثلاثة من الحديد، وأقفال غير القفل العادي، وكأن النوم فيها مخاطرة بموت لا يرده إلا حفظ رقم تلفون الشرطة، المكتوب على ورقة صغيرة فوق التلفزيون الملون. تلفنت لي ماري مرتعبة، «في نفس ليلة سفرك جاء مجرم إلى شقتي، وحاول خلع الباب، وكاد

ينجح لولا القفل الداخلي، تلفنت للشرطة...». اقشعر بدني، فأنا من سيتهم بقتلها والهرب إلى شيكاغو، وكيف سأنجو من السجن المؤبد عندها؟ جلست على السرير أفكر. لعلها «تتخيل» القصة كلها، فمن عادة منفصمي الشخصية اختلاق أوضاع «اضطهادية» كهذه. على كل، كنت أتوتر إلى حد أنني صرت أدخل في نوبات من الإرتجاف. كان عليّ أن أحسب كل حرف، كل تعبير، كل حلم، كل حركة، وأن أقدر أي أثر على نفسيتها. وأمها وطبيبها اتفقا على أنني تزوجت منها لأنني «بلا هوية»، ولا أعرف «من أنا». وربما كانا على حق، لكن أية «هوية» خلقا لماري؟ أمها حولتها إلى ببغاء، وطبيبها إلى «زبونة» يستطيع عبرها أن يقيم علاقة جنسية بأمها!. وتطلقنا.

ووجدتني بعد عدة سنين في فلسطين أسكن شقة حديثة من حجر أبيض خلف سجن رام الله المركزي، وتسكنني مخاوفي من الجنون. كتبت لي، لحسين الآخر ذاك، شبحي،

«تحلق في زرقة السموات طيراً من ثَنكْ
لا شيء ضدك أو معكْ
ويشدك للأرض خيط حرير فقط
والأرنب البريّ يقضمه لتفقد موقعك».

كان لديّ شعور بأنني أفقد آخر خيط يربطني بـ«الواقع»، آخر خيط. فأحلق لحيتي في المرآة، ليلاً، وأقول : «إبق على الخط». كان يحكم رام الله أيامها، و«الضفة الغربية» كلها، حاكم عسكري إسرائيلي يدعى «مناحيم ميلسون». وفي الصالون، ليلاً، على ضوء تلفزيون مشوش ورذاذ إلكتروني، قرأت تحليلاً عن شخصيته، ولا أدري لماذا ارتعبت من التحليل، وقلت له، لمناحيم ميلسون، أيضاً : «إبق على الخط».

تتناوشه مثلي وساوس عن فقدان صلته بـ«الواقع». وهوسه بـ«الوقائع»، وتقارير المخابرات، والأوامر، وكل ما يلزم لإدارة وحكم «الضفة الغربية» كلها، ليس إلا للبرهنة لنفسه أنه لم يزل على صلة بـ«الواقع». ولكن هذا الواقع مثل الماء بين أصابعه، وينزلق منه باستمرار، وكلما انزلق الواقع أكثر زادت مخاوفه، وزاد هوسه بالتحكم بالأشياء والناس، لكي يبقى على صلة بـ«الواقع».

نهر الأردن خيط حرير يشق المكان إلى «ضفتين» : غربية وشرقية. ومناحيم ميلسون يحكم الغربية فقط، وهناك ضفة أخرى تنزلق من بين يديه باستمرار، وهوسه بالهيمنة عليها يشبه الأغنية الصهيونية المعروفة : «للأردن ضفتان : الأولى لنا، والأخرى لنا». ولو اختفى نهر الأردن نفسه، لو قضمه الأرنب البريّ، لاختفت ضفتاه، ولما عرف مناحيم نفسه «شرقه من غربه». والتاريخ ماكر : انفصام شخصية المكان إلى ضفتين حالة «فضائية»، فيها كل شخصية تستقل عن الشخصية الأخرى، ولا بد من «ممر» ما، خدعة ما، كي يمكن القول بأن الشخصيتين تسكنان معاً في «نفس» الشخص رغم استقلالهما،

في «جسم واحد»، ومريض واحد، ومكان واحد.

هذه الخدعة جسر صغير من خشب وحديد فوق نهر الأردن نفسه، ممر وخدعة، من هنا يعبر، خارجاً من الغرب إلى الشرق، من حشره التاريخ في قنينة الإحتلال، ومن هنا يعبر، داخلاً من الشرق إلى الغرب، من سوف يحشره التاريخ في قنينة الإحتلال، ولا مكان هنا لا للدخول ولا للخروج إلا من شخصية أولى إلى شخصية أخرى في وضع فصامي. ألـ «جسر» هو لحظة تبديل الشخصيات، من ماري إلى ميندي، مثلاً، حين تستولي على الفصامي شخصيته الأخرى، وتنزاح الأولى، أكثف تعبير عن اللامكان، وعن فلسطين، وعن المدينة التي كنت أسكنها أنا ومناحيم ميلسون معاً : رام الله.

›

كنت أجوع أيامها، وبلا بيت ولا مال ولا شيء آخر، فأكتفي بشرب بيضة نيئة أو بيضتين يومياً، يا إلهي ما أتعس رائحة البيض النيء في معدة خاوية، معدة لمدمن على التدخين والتوتر.. ودعاني صديق كان طالباً معي في جامعة بيرزيت، للسكن مع شلة في تلك الشقة الحديثة من حجر أبيض خلف السجن. شلة أطعمتني، وأسكنتني بكرم حاتمي. ووجدتني أنام على أريكة ذات غطاء أخضر فاتح في الصالون، وليس في غرفة «عادية» أو في لون «عادي». والصالون هو «الجسر».

في ليلة ما غفوت وتركت التلفزيون الملون مفتوحاً، واستيقظت مرتعباً من شيء خفي في الروح، ونظرت حولي : قرب التلفزيون، على مقعد خشبي، تقريباً رأيت شخصاً آخر يشبهني، نسخة عني، وبدا وكأنه كان هناك من زمن طويل يراقبني وأنا نائم. تقريباً رأيت، أي شعرت بحضوره، بطاقة في الجو، كطفل شعر بأن أباه الميت كان يجلس هنا، ويحلق لحيته في المرآة هناك، وبالتدريج تتكاثف الذكرى، والطاقة، وحضور الموتى، وتقريباً يرى أباه جالساً في الكرسي كأن لا موت هناك. شعرت بأنني داخل شقة أخرى انفتحت في الشقة، أو كأن شخصية أخرى للشقة استولت على الأولى. قلت «ابق على الخط : أنت تتشبه بنهر الأردن، وعلى وشك الإنفصام إلى ضفتين».

في ذلك الصالون كتبت الفصل الأخير من رواية «الضفة الثالثة لنهر الأردن» : كتبها حسين آخر، شخص يشبه مناحيم ميلسون، ويسمع، ليلاً، في الجبال، حركة أرنب بري يقضم آخر خيط يربطه بـ «الواقع». وكتبت، مع نفس الصديق الذي دعاني للشقة قصيدة فجة ـ كنا نعتقد بأنها جميلة ـ أهديناها لمدرب الكاراتيه:

«سأدخل في هذه الشقة الخالية

تلفنوا لي : سأترك قرب الهاتف فيها ذاتي الثانية

وأخرج إن خرجت وفيّ إصرار الخوارج أو خداع معاوية».

كنت على وشك التصدع الكامل. وفي آخر أيامي في نفس الصالون، في هذه المساحة من بلاط مرقط بالأبيض والأسود، حلمتني في حانة من خشب على النمط الأميركي،

سبق ورأيتها في فيلم «كان يا ما كان مرة في الغرب»، وكانت تتأرجح فوق هاوية لم أدركها، والسقف يدلف بقوة، ومنه تنزل مزاريب ذات صوت غريب، ومن وسطه تتأرجح بجنون لامبة كهربائية صفراء الضوء في طرف سلك أسود، وتذهب من أول السقف إلى آخره ثم تعود، وكلما تغير موقعها تغير الضوء الشبحي المبتل الذي يصدر منها، وتغيرت الحانة معه، والأثاث كله يتزحلق تحت المزاريب جيئة وذهاباً، كل شيء مبتل، وكلما تشبثت بشيء وقع، فوجدتني مستلقياً على بطني فوق المصطبة أحاول القبض على سطح خشبي أملس، على محض ضوء على خشب، ولما تمكنت منه قليلاً انكسر لوحان في المصطبة في بقعة بين يديّ وتحت وجهي مباشرة، وانفتحت هوة فيها رأيت موجاً أسود لامعاً يصعد نحوي ويهبط كي يصعد ثانية، وشعرت برعب من الموت غرقاً، وأدركت أن الحانة كلها تطفو فوق البحر. كنت أتخلع.

يا إلهي كم كنت أحنّ إلى التوازن! مرة رأيت عرضاً بهلوانياً صينياً : صبية تنام على ظهرها وترفع قدميها، وعليهما تبني صبايا أخريات هرماً شاهقاً يصل السقف. استغربت جماله وتوازنه، فقال لي صديق ما، «لماذا تستغرب يا حسين؟ هذه الثقافة الصينية تبحث منذ خمسة آلاف عام عن «توازنها»، هذا هرم يأتي من التاريخ». ومن أنا الآن، يا بري، غير مجنون يركض في جبل مقمر في ذهن تاريخ مختل؟! من أين لي بالتوازن، أو بتاريخ متوازن يا بري؟ . يا إلهي! حتى الكلمات لم تعد..

›

كان بري يصغي، طوال الوقت، وفي عينيه بريق أسود قلق، وكأن في عينيه سطرين من سطور الغيب يوشك أن يبوح بهما ويتردد. أنهيت كلامي، وعلى عكس ما توقعت، لم يعلق. وأخذ يلف لفافة تبغ بصمت، ثم قال جملة واحدة : «ذهنك اجتماعي يا رجل. وأنا أستطيع مقارعة كل شر، إلا الشر الإجتماعي». وبصق فتات التبغ من فمه، وأطرق مرة أخرى.

خلفه شباك واسع مفتوحة دفتاه على فضاء شفيف وأزرق غامض، وبدا هو كتلة منحوتة في إطار الشباك. اتكأت على حافته، وسرحت في تأمل شجرة ورد سامقة قرب سياج خشب.

ما الذي أبحث عنه هنا، في هذه القارة كلها؟ خطر في بالي فيلم عن دير صيني قديم، فيه طفل زرع له الراهب شجرة ورد، ليدربه على الـ «كونغ فو»، وقال له أن يقفز فوقها كل يوم، أعلى فأعلى، حتى سمقت الوردة عالياً، وصار يقفز بخفة قط، كبرت معه وكبر معها.

وذكرني هذا بفيلم آخر عن معبد «تشاولين»، في الصين القديمة، بقايا فيلم اهترأ في الذاكرة عن راهب بوذي يعلم شاباً منذ نعومة أظافره على الكونغ فو، فيكبر في الدير، ويسلمه الراهب سلسالاً فيه نصف ميدالية من ذهب، ثم يقول له : لا يوجد الآن أحد يعرف

أكثر مني ويستطيع أن يعلمك شيئاً جديداً في هذا الفن، إلا راهب آخر في مدينة أخرى في أقصى الصين، اذهب إليه. وأعطاه عنوانه. «وكيف أعرفه؟». «عنده نصف الميدالية الآخر، فابحث عنه»، رد الراهب.

وفي المدينة الموعودة، يكتشف أن العنوان الذي يبحث عنه غير موجود. وأثناء تسكعه في المدينة بحيرة كاملة، وعنوان خاطئ، تحشره عصابة في قاعة واسعة وتكاد تقضي عليه، ويشعر بالدوار، ويكاد يسقط، فيحدق في قلبه في لحظة بدا له فيها وكأنه سيموت، فيرى، كما في حلم، معلمه من «تشاولين» يهتف به : معك أنت نصف الميدالية الآخر، أنت هو الوحيد الذي يستطيع أن يعلمك أكثر مني.

منذ سنين وأنا أحلم أن أترك كل شيء في حياتي، وأذهب إلى دير في الصين، وأتعلم الكونغ فو، ولا أخرج من هناك أبداً. ولكن هناك نوعاً من الناس، مثلي، لا يمكنه أن «يحسم» كل حياته، كلها، لآخر ذرة في قلبه، من أجل أي شيء في الدنيا، وقدره أن يبقى «مشتتاً»، كالندى فوق العشب، بدل أن تتوحد كل قطراته لتكون جدولاً أو نهراً، وتحسم نفسها بـ «اتجاه» ما، اتجاه واحد لا رجعة عنه ولا شك فيه. أعني أنني من هذا النوع الذي لا يحيا لأجل أي شيء إلا بنصف قلب، على الأكثر، وكل شروره تأتي من نصف القلب هذا، إن بقي لديه أي قلب أصلاً. وأوصلني هذا إلى صحراء روحية ما.

وتذكرت، وتذكرت، وتذكرت، كل حياتي هكذا : مسلسل من «الذكريات»، وكل فكرة تقود إلى أخرى تقود هي نفسها إلى أخرى تقود هي نفسها لـ.. وذاكرتي ليست دقيقة أبداً، وعادة ما أبدل وأغيّر فيها، وأرمّم، وأحذف، وأبقي، وأخترع ذكريات، وهكذا، وهكذا. وضعت رأسي على حافة الشباك وكأنني سأغسله في الفضاء الأزرق وحاولت أن لا أتذكر شيئاً أبداً.

ثم انتبهت فجأة لكونه لم يقل شيئاً، وهذه إهانة. قلت بغضب:

• «بري، لم تعلق على كلامي!»

ـ «لكل شخص رقصته مع الحياة يا رجل. ولا أستطيع رقص رقصتك معها».

• «مصيري فردي، كشجرة الورد هذه، تنمو لوحدها، وجميل منها أن تنمو لوحدها، لكن ما رأيك في رقصتي؟».

لف لفافة تبغ من نوع «عثمان»، وبصق الفتات، وقال ضاغطاً كل حرف :

ـ «ميز الذهن عن محتواه يا حسين !».

أول مرة أسمع عن تمييز كهذا. ولم أفهم شيئاً إطلاقاً. رجعت للطاولة وقعدت وحدقت في عينيه كالأبله، بحيرة كاملة. ومرت لحظات صمت مطبق، ثم قلت:

• «وما الفرق بين الذهن ومحتواه؟»

كان أمامه صحن كبير أبيض فيه بقايا بيض مقلي، وأعقاب سجائر، وفتات خبز فرنسي. قبض على حافة الصحن بنوع من الإشمئزاز، ورمى بكل ما فيه من بقايا على

الموكيت الأزرق القذر، بقربي، ثم رمى الصحن الفارغ على الطاولة، أمامي، وقال مؤشراً إليه :

ـ «هذا هو الذهن».

وأشار إلى بقايا البيض والسجائر والخبز على الموكيت، وأكمل:

ـ «وهذا هو محتواه!»

• «الحقيقة دائماً ملموسة. كن ملموساً الآن : ما هو محتوى ذهني؟»

ـ «ذهنك سعدان لدغته عقرب ماضية، فصار ينط ويزعق : وع ! وع ! وع ! وع ! وهذا هو محتواه: زعيق قرد.»

وتخيلتني سعداناً قصيراً يمسك بقدمه اليمنى ويقفز على رجل واحدة في فسحة في غابة ويبتعد عن العقرب زاعقاً وع! وع! وع! ضحكت، وقلت:

• «تقريباً هكذا.»

ـ «ليس تقريباً يا حسين ، ذهنك سعدان ملدوغ . تشبه هذا الفقير الهندي الذي جاء إلى دير بوذي بحثاً عن إنارة روحه. وقعد يروي للراهب عن ماضيه، وعذابه، وذكرياته، وعن حاجته للتنوير، ويروي، ويروي، ويروي، والراهب يصغي ويصب الشاي في فنجان على الطاولة. طفح الفنجان، وسال الشاي على الخشب والأرض، والراهب يصب، والرجل يروي ويروي ويروي، إلى حد الملل، وأخيراً انتبه فقال للراهب : طفح الشاي من الفنجان لماذا تواصل الصب فيه؟ فرد الراهب : «ذهنك يشبه هذا الفنجان، مليء، أفرغه مما فيه، كي أصب لك شاياً جديداً».

• « تعني أني ممل؟ »

ـ «نعم، ممل، يا رجل، لست أقصد منها الإهانة، فالمعرفة لا شخصية، لكنك ممل. هل تدري لماذا؟ لأن فنجانك مليء بشايك القديم. أفرغه».

ونهض غاضباً نحو رف كتب عليه كومة من أوراق كمبيوتر ممزقة وقذرة، كان يلتقطها من الشارع ويجمعها عنده، وأخذ ينبش فيها، ثم سحب من تحتها كتاباً قديماً، (عرفت لاحقاً أنه عن الحكمة الأنثوية عند الهنود الحمر، ويدعى «ميديسن وومن» («المرأة الطبيبة»)، وهو اسم بديل عند البعض، في الأنثروبولوجيا، لأسماء مثل «الساحرة» أو «المشعوذة».) فتحه، ولم أدر هل كان يرتجل أم يقرأ منه، لكنه كان يحدق فيه، وبدا، في نفس الوقت، وكأنه يتخيل رقعة شطرنج أمامه على الطاولة. مدّ يده وقبض على كتلة صغيرة من الفراغ بأصابعه، ورفعها في الهواء نحوي ببطء، وقال:

ـ «هذا رأي من آرائك».

ورمى بحجر شطرنج وهمي على الموكيت، وبلذة كاملة، وفي صوته عمق غريب ورهبة من قوى غامضة:

ـ «واو ! واو يا رجل : وهذه نظرية من نظرياتك»،

ورمى حجراً ثانياً،
ـ «وهذه ذكرى من ذكرياتك».
ورمى حجراً ثالثاً،
ـ «وهذا حلم من أحلامك»،
ورمى حجراً رابعاً،
ـ «وهذا وجع من أوجاعك»،
ورمى حجراً خامساً، وظل يرمي بالحجارة حتى صارت الرقعة فارغة، ثم نظر إليّ وقال :
ـ «هذا يدعى إفراغ الذهن من محتواه».
لم أرد استفزازه أكثر، بأن أقول، مثلاً، لم أفهم. وفضلت الخرس. وصلني ما قاله ولكن لم أفهم، فكثرة المعلومات لا تؤدي إلى الفهم، كما قال هيراقليطس، وكان أذكى من أن لا يلاحظ ذلك، فألقى الكتاب من يده، وقال في نوبة من غضب جامح:
ـ «اسمع يا رجل : الحياة نهر وكل يغترف منه بحجم فنجانه. فنجانك صغير».
قلت بسخرية وهدوء، ناوياً أن أدفع غضبه إلى أقصى مدى ممكن:
• «وما هو فنجاني؟»
قفز للمطبخ وأحضر فنجان شاي فارغاً، ثم هزه أمام عينيّ وقال:
ـ «ما هذا؟»
• «فنجان».
ـ «هل تسميه فنجاناً إن كنت تستطيع أن تصب شاياً فيه فقط، وليس قهوة أو عصير تفاح، مثلاً؟»
• «لا».
ـ «وإن كنت تستطيع أن تصب قهوة فيه فقط، وليس ماء أو عصيراً، مثلاً، هل تسميه فنجاناً؟».
• «لا».
ـ «لماذا؟»
• «لأن من طبيعة الفنجان أن يكون فيه فراغ ما، ومن طبيعة الفراغ أن أستطيع أن أصب فيه ما أريد».
ـ «هذا هو الذهن : فنجانك الذهبي. من طبيعة الذهن أن يكون فارغاً، ومن طبيعة الفراغ أن يكون قابلاً لأن تصب فيه أي رأي، أو نظرية، أو مذهب، أو معرفة، أو شعور، أو ذكريات. ميز بين الذهن ومحتواه كما تميز بين الفنجان والشاي الذي في الفنجان، يا رجل!»
قلبي كان يعبر من عوالم إلى عوالم أخرى مع كل كلمة منه. وكنت مذهولاً من طريقة فهمه للأشياء: أول كائن، أو مجنون، لا يناقشني ولا في أي شيء مما رويته له عن حياتي،

ويشير عليّ بأن ألقي بكل «ذاكرتي» في صناديق القمامة. الإنسان هو تجربته، وذاكرتي من تجاربي. هو نفسه قال لي «تجاربي معبدي ومعبدي مقدس». قلت مستفزاً :

• «أنت تناقض نفسك، أم تعتقد بأنني غبي؟»

فصرخ في وجهي :

ـ «هل أناقض نفسي ؟ نعم، أناقض نفسي، وشو يعني؟ عقلي من ذهب نقي، ذهب نقي، هل أناقض نفسي؟ نعم أناقض نفسي! وشو يعني؟ عقلي سكين من ذهب، وقد حفيتْ يا رجل وأنا أفسر لك نفسك! هذا ما فعلته أنا لأجلك، ماذا فعلت أنت لنفسك؟ هل ستقضي حياتك بين المقاهي؟».

شعرت بوجع عميق في معدتي من كلماته، وجع عميق، لأنه قال حقيقة لا أريد أن أراها : كنت أقضي جلّ حياتي في المقاهي، في نهر تافه يدعى بـ «الحياة اليومية»، والحياة اليومية كلها خيال أدبي فقير. وكنت قد تعلمت من رواية «طريق محارب مسالم» أنني مدمن، أعني أحيا تحت سطوة عادات فقدت سلطتي عليها وعلى تغييرها.

• «وماذا أفعل؟»

ـ «أن تفعل شيئاً يعني أن تغير شيئاً. قبل عدة سنين كنت في معبد في «جزر هاييتي»، وقد هيأتك جيداً للذهاب إليه، أعرف فيه راهباً معرفته تفوق معرفتي، راهباً مرعباً يا رجل، وسأبعثك إليه، سيقول لك هو بنفسه أنني هيأتك جيداً، اذهب هناك».

بدأت أشعر بالتشتت، والتعب فعلاً. وشعرت بألم آخر من نصيحته لي بالذهاب لهاييتي، بألم، لأنني أحببت هذا الرجل، فاستأذنت وخرجت إلى بيتي. نظر إليّ بحزن، وهزّ رأسه، ولم يعترض.

كان الجو بارداً قليلاً، والهواء منعشاً، واتجهت للأستوديو. أخذت «دوشاً» ساخناً وطويلاً، وكأنني أطرد جليداً من عظامي، ولكن الحرارة الخارجية لا تصل للداخل. وألقيت بنفسي في «كيس نوم» من البولياستر، وحاولت أن أغفو. ولم أكد أغمض عينيّ حتى سمعت نقراً خفيفاً على الجدار الزجاجيّ من الخارج، وسمعت بري يقول مؤنباً: «يا رجل، أنت تنام للأبد! تعال، أريد أن أريك شيئاً غريباً».

فوجئت من قدومه، ومن نبرة صوته، كان وكأن شيئاً ما حدث معه، شيئاً غامضاً. نهضت وخرجت خلفه. كان يؤشر باتجاه ما، نحو أزقة خلفية، فتبعته. وظل يمشي، ويقول:

ـ «حسين لا تثق ولا حتى بي، لا تثق ولا حتى بي، ولا حتى بي، ولا بأحد».

وكان يبدو مهزوزاً، ويبكي، ويمسح دمعه بكمه، ويبدو هائجاً، وأنا ألحق به لا أدري ماذا حصل. وصلنا إلى غابة فيها بركة ماء واسعة، وكان الصبح انبلج تماماً، والماء يبدو صافياً، وأستطيع رؤية قعر البركة. قال :

ـ «انظر هنا، هنا، في القاع».
نظرت فرأيت القاع بوضوح. ولم أر شيئاً آخر. قال:
ـ «انظر القاع».
ونظرت ثانية.. كنت في حيرة كاملة. فحدقت في عينيه، مسح دموعه، وقال:
ـ «حسين، أرأيت القاع؟»
• «نعم».
ـ «هل القاع واضح تماماً؟».
• «نعم».
ـ «ألم تر أي حاجز بين السطح والقاع؟»
• «لا!»
ـ «ولا أي شيء بين السطح والقاع؟»
• «لا!».
وحدقت فيه بعدم فهم كامل. قرب وجهه مني وقال ضاغطاً كل حرف:
ـ أنت تحتاج إلى هذا الوضوح، أن ترى العمق كما ترى قعر الماء في هذه البركة. انتهى الدرس».

وفهمت الدرس، وكان درساً جيداً، لكن لم أفهم ما سر بكائه أبداً. مرة بكى وسألته لم يبكي فأجاب : «على هذه الإنسانية الساقطة يا رجل!». ولكن هذا جواب على بكاء سابق، ولا تفسير لبكائه الآن.. تركني عند حافة البركة، ومضى وحده. وقفت أراقبه يبتعد، وأراقب البركة، وأفكر. فجأة نظر إلى الخلف ورآني لم أزل مصلوباً في مكاني. توقف ونادى:

ـ «يا رجل ! في كل ذهن تسبح الأفكار وتبقى نتف : بين الفكرة الأولى وبين الفكرة الأخرى هناك الكثير لكي يكتشف». وهزّ إصبعه، كمن يقول بأنه يعني ما يقول، ثم مضى.

ومن هذه الكلمات شعرت بأن روحي التي كانت تشبه كتلة متراصة، صارت «غربالاً»، انفتحت فراغات بين «كل فكرة وأخرى»، وكأن ذهني صار جزراً صغيرة متباعدة في محيط أزرق مشمس، بين الجزيرة والأخرى معارف لا نهائية غير مكتشفة، وشعرت بأن كل ما أعرفه لا شيء، مقارنة بما يمكن أن أعرفه. أوليس هذا نوعاً من أنواع إفراغ الذهن من محتواه؟ هناك كلمات «تملأ» الرأس بمحتواها، وكلمات «تفرغه» من محتواه، والأخيرة أجمل. الذهن هو «ممكناته»، وليس «ما فيه»، أو كما قال جبران، لا يقاس الإنسان بمنجزاته بل بما يتوق إليه، الذهن «توق»، حنين نحو مستقبل. ولكن إلام يتوق، وماذا يريد من توقه؟

فتحت كيس نوم من البولياستر، وغمرت نفسي فيه.. «أن ترى القاع، أن لا يوجد أي حاجز يشوش المسافة بين السطح والقاع، أنت تحتاج إلى هذا الوضوح، تحتاج إلى هذا

الوضوح.. تحت..» وغفوت لمدة لا يعلمها إلا الله.

لم أعد إلا بعد ليلتين. كان معه في البيت شاب أميركي نحيف وطويل وأشقر، جلده أميل للشحوب، وله شارب مستطيل، ويبدو طيباً وعادياً جداً، وآخر أسمر البشرة، مهندم، وحليق اللحية، مستدير الوجه، بأعين تطفح بالحمرة بدا لي مدمناً على المخدرات. قال الأخير إنه لا يحب أن يكون وحيداً في بيته ليلاً:

ـ «حين أكون وحيداً أرى سرباً من نساء جميلات عاريات يمرقن ببطء أمامي، هكذا، هكذا يمرقن (ورسم بيده نصف دائرة)، كالتصوير البطيء في السينما، وينظرن إليّ بصمت، لا أتكلم عن خيال، بري، أقسم بالله، ليس عن خيال، بل عن حقيقة، أراهن يمرقن، هكذا، هكذا...».

ـ «أعرف يا رجل أعرف،» تمتم بري.

سألته مذهولاً :

ـ «تعرف ماذا؟»

أشار إلى الدرج الداخلي الذي ينزل من الطابق العلوي، والمغطى بموكيت أزرق مهترئ وقذر، وقال:

ـ «أحياناً عن هذا الدرج تنزل نساء قبيحات وعاريات، من أقبح ما مرّ في خياله سبحانه، أسميهن بـ«الجميلات»، مجاملة يا رجل، مجاملة، سبحانه في خلقه»، وفرط ضاحكاً. سألته:

ـ «وماذا تفعل بهن؟»

ـ «اسأل ماذا يفعلن بي يا رجل!»

وأغرق في الضحك حتى نزلت دموعه، وهو يلف لفافة تبغ، ثم قال مقرباً وجهه مني : «عندي حس ذهبي بالضحك يا رجل، الآلهة جدية، وبري ضحوك». وبدا لي في هذه اللحظة أنني مع مجنون يستيقظ من جنونه لبرهة أو لأخرى، بالضحك من الأشباح، أو عليها، أو معها، والجنون وطنه. شعرت بأن عليّ للخروج من الجنون تعلم الضحك الذهبي هذا. نعم، الضحك الذهبيّ، لم ألتق قبل هذا المخلوق بإنسان يضحك.

وقف شعر رأسي من الخوف، رغم ذلك، لا أخفي. وجه الشاب الأشقر اقشعر من الخوف أيضاً، أكثر مني بكثير، وبدا جلده أصفر جداً. قال بأنه سيخرج لشراء قنينة نبيذ، وطلب أن أخرج معه.

في شارع واسع وخال، ومضاء بالنيون، شعر بالرعب، فقال: «سأمسك يدك»، ووضع يده اليمنى تحت ذراعي وًالتصق بي، وقال بأن اسمه «جو». حاولت تهدئته. كنت أنا نفسي مضطرباً، لأن الجنون الشامل فيّ بدأ يستيقظ. وهذا أنا، مع مجنون أو مجانين، أرى ماذا سيكون أمري عليه.

في الفن يجب أن تلامس الجنون بدون أن توقظه، وكنت ألامس الجنون وأوقظه، في الحياة. وهذا أخطر. ولا أستطيع العودة من حيث جئت، وأملي في الخروج كان متوقفاً على بري. نقطة. وعليّ أن أتعلم منه فن التذبذب بين الصحو والجنون، على الأقل. حاولت أن أتخيلني وحيداً في الأستوديو، ولكن عندما تدخل نساء من هذا النوع عليّ سأجن، حتماً سأجن، حتى ولو فكرت في الأمر فقط، ولم أر شيئاً، سأجن، ولو دخلت واحدة فقط، وليس سرباً، سأجن.

كنت تعلمت من رواية «طريق محارب مسالم» تكنيكاً مفيداً: إن خطرت في بالي أفكار جنونية من هذا النوع أقول: «دعها تمر» : لا تفكر فيها، إنسها حالاً! وأنساها، لا أحللها، ولا أحاول فهمها، ولا حتى أفكر في كوني لا أفكر فيها، فقط أتركها تذهب كما جاءت. «استخدام العقل» في منطقة كهذه ليس إلا طاقة جديدة تدفع بالجنون إلى مداه.

ولكن ما العمل إن «رأيت» فعلاً نساء ينزلن لي من «طابق علوي» في عالم آخر؟ فكرت في سؤال بري عن هذا، ولكن السؤال سيستفزه جداً. لو قلت له مثلاً : «بري، هذا العالم الذي تحيا فيه جنون، كيف تخرج منه أو تبقى يقظاً؟»، سيصرخ : «يا رجل، أوليس لديك إيحاء أفضل من هذا؟»، أي لا «توحي» إليّ بأنني مجنون، لا تلعب بقواي النائمة، فتوحي لي بأنني مجنون، لا تزرع، رغم إرادتي، فكرة «سلبية» في رأسي عن نفسي. وإلا فأنت «منهم» هؤلاء الذين يقتاتون على قواي. كنت أعرف أنه سيرد هكذا. فكرت في صيغ أخرى. ولما رجعنا بقنينة النبيذ كنت قد توصلت إلى صيغة معقولة وموارِبة، أي ماكرة. انتظرت حتى ذهب الشابان، وسألته:

«كيف تعبر في بقعة خطرة؟»

أشعل لفافة تبغ، وبصق الفتات من فمه، وقال بعد صمت : «بمعرفة أنني أنا أيضاً خطر».

ولمعت في ذهني فكرة أن «الجنون» نوع من أنواع الضعف. وللخروج منه لا بد من «الإيمان» بأننا لسنا فريسة، بل نموراً وصيادي نمور خطرين.

تذكرت ليلة استيقظت فيها في صالون الشقة خلف سجن رام الله، وكنت وحدي. إضاءة صفراء. صمت. طنين صمت، بالأحرى. سمعت شبحاً في المطبخ يجلي الصحون، شبح أنثى من نوع شرير، أسود.. باب المطبخ كان مفتوحاً، ولكن بموارِبة، ولا أرى... قشعريرة سرت في جلدي، كهرباء خوف ما ورائي. غمرت رأسي بالفراش بلا جدوى، وحاولت أقنعني أن أقتنع بأنني «أهلوس»، ولكن «تفكيري» في الشبح زاد من حضوره. لمحت ملابس «الكاراتيه» البيضاء معلقة على الحائط وفوقها حزام أسود. قفزت إليها، ولبستها، شددت الحزام على خصري وأنا أرجف. واتجهت إلى المطبخ صارخاً: «لن أسمح ولا حتى لشبح بأن يجلي صحوني». ودخلت المطبخ. لا صوت. أشعلت الضوء. لا شيء. ثلاجة تئز قطرات ماء تسقط من الحنفية، خبز، مجلى، صحون، لا شيء غير عادي. شربت

الشاي ورجعت. نمت ليلتها بملابس الكاراتيه.

ليس الغريب أن إرادتي تغيرت من إرادة «منسحبة»، «خائفة»، إلى إرادة محارب غاضب يعرف أنه «أيضاً خطر»، فعاد المكان لي بعد أن كان عليّ. لقد حدث هذا حين بدلت ملابسي بالذات. لباس الكاراتيه يرتبط في قلبي بالقوة، بقاعات من إسمنت مسلح فظ، فيها تتجمع برك ماء في عز الصقيع، والريح تدخل من شبابيك عالية ومكشوفة، وأنا في «قتال حر» مع الخصم، وأهاجم، وأنضح عرقاً. هذه «الذاكرة» نائمة في اللباس نفسه، مثلما كانت تنام معرفة الخير والشر في التفاحة الإلهية التي أكل منها حواء وآدم في الجنة. لون بدلة الكاراتيه الأبيض وحده، أو لمسة منها لجلدي، تكفي لكي تسيل القوة منها إليّ، لتعود لي ذاكرة ضائعة بأنني «أنا أيضاً خطر». هويتي تنتشر حتى في ملابسي، هويتي كـ «محارب»، وليس كضحية ممكنة. مرة قال لي معلمي في الكاراتيه، حسن الحلواني : أن قوة ضربتك ترتبط بقوة قناعتك أنت بها.

وأدركت بعض أسرار ما حدث معي في ذلك الصالون في رام الله : أيامها كنت لا أملك مالاً، وأضطر لأن ألبس ثياب غيري، وكان قلبي يعرف قلبي بأن «ثياب» الآخرين كانت «علقة» تمص من دمي قوتي، خفية، وتشعرني بالضعف، بأنني طفيلي، مثلاً. قوتي في جلدي فقط، لا مساحة أرحب. وتذكرت كيف كانت المخابرات الإسرائيلية، حين تحقق مع سجناء فلسطينيين، تعرض عليهم «سيجارة» : قبول سيجارة المحقق يعني، في منطق السحر، قناة تسيل منها هوية السجين إلى هوية المحقق، فيضعف السجين، أي يبدأ انهيار فكرته عن نفسه ككائن مستقل تماماً عن المحقق، بسيجارة. وتذكرت كيف تقوم «وكالة الغوث الدولية» بتوزيع «المؤن» على اللاجئين الفلسطينيين في «أكياس» مكتوب عليها «تبرع من.. الولايات المتحدة» أو غيرها. هذا سحر يشعر الإنسان بأنه بلا كرامة، بالضعف، وتحت رحمة «التبرعات» من الإمبراطورية. والسحر هو منطق الدنيا، من العصر الحجري حتى الآن.

وبهذا تبوح جميع «طقوس السحر» في التاريخ : أغوار هوية كل فرد تغوص في الطقوس الغامضة: للموت طقوس، لفقدان القوة طقوس، للقداسة طقوس، للسياسة طقوس، للولادة طقوس، للنضوج طقوس، للزواج طقوس، للكتابة طقوس. والطقوس نوع من أنواع الإيحاءات التي تشبه ناراً في الليل تنوم الناظر فيها مغناطيسياً.

أنكيدو، في «ملحمة جلجامش»، ذلك الذي رضع لبان الحيوانات في البراري، وشعره طويل مثل إلهة القمح، الوحش البدائي هذا، فقد قوته حين ضاجع عاهرة مقدسة عند النبع البري، وصار «يعرف». المعرفة «ضعف»، ولو صرت بها «مثل إله يا أنكيدو». وحلم في «أوروك» أنه مات. رأى مجلس الآلهة في حلمه يقرر موته : ورؤية الضعف قد تكون ضعفاً : رأى آخرين يقررون مصيره، آخرين يؤمن هو بأنهم الأقوى والأرهب. عند مدخل العالم السفلي، حيث سيحيا في العتمة ليأكل الغبار وخبزاً من الطين، سحره طائر الـ

«زو» إلى طائر، مسخته قوة عليا، لأنه صار «ضعيفاً»، ودخل عالماً فيه حتى خبزه انمسخ إلى طين وغبار.

وحتى الربة القمرية القديمة «أنانا» كانت تدخل العالم السفلي بوابة بوابة، وعند كل بوابة تنزع أشباح العالم السفلي شيئاً من «زينتها» : صولجانها، قلائدها، لباسها، وكلما سألت : لماذا؟ قالت الأشباح : «لا تسألي يا أنانا تلك طقوس العالم السفلي»، حتى تصل الأعماق الميتة عارية تماماً، أو بالأحرى «معرّاة» من كل ما يخصها، ويخص هويتها السابقة.. هذه «طقوس الضعف»، حين تسيل القوة للخارج. والتسكع في بقع «سفلية» من هذا النوع، حيث أفقد في كل خطوة معلماً من معالمي، ذاك من علامات الخائفين، ومن انهارت إرادتهم وانسحبت كالحلزون الأحمر إلى داخل قوقعة مشكوك فيها. كنت أتخيلني ذئباً، أحياناً، ولكن بدل أن أهجم نحو نيران الرعاة، ليلاً، وأستبيح ما أستبيح، أراني واقفاً في الغروب، أمام شفق بعيد، على تلة، وأعوي في حزني. الحزن ضعف ولو صرت به شبه إله يا أنكيدو، والشعور بالذنب ضعف، ولو صرت به قديساً يا أنكيدو، والشفقة على أي شيء وعلى نفسك ضعف ولو صرت بها مسيحاً. وها هو الآن ذلك الصوفي من قونية، يبشرني بطريق آخر : معرفة أنني أنا أيضاً خطر، معرفة أخرى بطقوس مضادة، ورقص نقيض.

حدثني المخرج المسرحي، يعقوب اسماعيل، مرة عن طفل مجنون من رام الله، يحب البراري، سألوه لماذا لا تحب القرب من البيت والناس قال : «لا يريدونني أن أصير إلهاً مثلهم». وها هو ذلك الصوفي يزرع فيّ إرادة أخرى : تستطيع أنت أن تريد أن تكون إلهاً مثلهم، إرادتك أنت الأهم، وستكون، انتظر يا بنيّ ستكون، أقسم بالذي مرج البحرين بينهما برزخ لا يلتقيان ستكون حراً، يوماً ما، بإرادتك أنت، ولا شيء آخر. هذه هي قسمة الآلهة للمحاربين: الغنائم.

سألت بري :

- «هل ستعلمني معرفة أنني أنا أيضاً خطر؟ طقوسها يعني؟»

ـ كن محارباً هندياً أحمر».

- «كيف ؟»

ـ «أي حيوان تحب ؟»

- «النمر».

ـ «فليكن. جاءني طائرك الأزرق في ذات ليلة، أتذكر ؟ لا أريده ! ابعث نمرك إليّ».

لم أفهم شيئاً. فارتجلت مساقاً ما :

- «متى ؟»

«غداً، ليلاً، العاشرة بالضبط. إبعثه. هل تسمع؟»

كل حديثه كان غريباً. ولساعات وأنا أفكر كيف أبعث له «النمر» على الموعد، في

العاشرة بالضبط. وأخيراً، في الليلة التالية، ذهبت إلى بيته بنفسي. وجدته ينتظر، مستعداً، ونهض عن مقعده وقال كمن يعد لحملة عسكرية لاجتياح سور الصين العظيم:

ـ «أهلاً ، جئت ؟»

• «نعم» .

رفع رجله اليمنى عن الأرض، بثقل، وبطء، وقوة، وكأنها من حديد أو حجر، ثم ضرب الأرض بها، وسمعت أزيز خشب ينوء وكأنه سيتكسر، وأخذ يهمر مثل نمر، وفهمت. قلدت حركاته، ومشيت خلفه بنفس الطريقة وأنا أهمر، وأهمر. تخيلتني نمراً من النوع الـ«بنغالي»، يمشي في ممرات غابة، وتفر طيور عن الشجر خوفاً منه، وتزعق سعادين صغيرة صاعدة إلى أعلى الفروع، آلاف السعادين، من هذا النوع المعروف في الأمازون، وغزلان تقف شاردة وآذانها تصغي خائفة من حفيف خطاي. وقفت مطلاً على نبع ما، ورأيت هناك قطيع نمور من بني جنسي، فنزلت لكي أتعرف على أهلي.

قعدنا نشرب الشاي لما قلت له :

• «لما دعوتني إلى بيتك في المرة الأولى قلت بأن لك معبداً، في زقاق مظلم وخلفي، فيه تقيم سيدة ما، تجعل نفسك ضمة ورد على بابه. من أو ما هي؟».

ـ «حيث يقيم قلبك يخلق لك معبداً. في معبدي امرأة وضعت قلبي عندها».

• «من هي ؟»

ـ «كانت طالبة في الجامعة. ورفضتني يا رجل. لاحقتها سنتين بلا جدوى. سأرفع عليها قضية في المحكمة بتهمة التحرش الجنسي بي». وفرط من الضحك، وفرطت أنا أيضاً. فأكمل بلذة فائقة :

ـ «يا رجل، لديّ حس ذهبي بالفكاهة!».

• «أعرف، أعرف. لكن ما اسمها، تلك السيدة؟؟».

ـ «أماندا. الألف ترقص فوق ظهر سفينتي وتغني أماندا أماندا! الميم ترقص فوق ظهر سفينتي وتغني أماندا أماندا! النون ترقص فوق ظهر سفينتي وتغني أماندا أماندا! الدال ترقص فوق ظهر سفينتي وتغني أماندا أماندا ! والألف خاتمة النشيد ترقص فوق ظهر سفينتي وتغني أماندا أماندا!».

• «هل كنت بحاراً في زرقة البحر والزبد ذات يوم؟»

ـ «نعم. لكن كما يقول المثل : لا يوجد شخص لا قيمة له إطلاقاً، ولو خدم كمثال سيء. سأخدمها كمثال سيء على من تعرفت عليهم في حياتها».

لم أستطع إلا أن أقهقه عالياً، وكدت أن أقع عن الكرسي.

• «وكيف ترى إلى حياتك أنت حين تعرفت عليها ؟»

ـ «يا رجل، أحياناً فقط أنظر في أمر حياتي، وأقول : بري، إنها نفس الشيء القديم الذي يسمونه بالحياة».

وأطرق طويلاً بمرارة، ثم هزّ رأسه وقال :
ـ «سأكتب كتاباً عن حياتي يدعى «الرحلة الخطأ».
• «ولم لا تكتب؟»
ـ «لأنني أعيش يا رجل».

خرجت من عنده بعد منتصف الليل، وتسكعت في شوارع خلفية مضاءة تتراقص فيها ظلال الشجر فوق سواد الإسفلت، غارقاً في قصة النمر هذه، والسيدة، حين توقفت قربي سيارة حمراء وفخمة، وغمرتني موسيقى «روك آند رول». فوجئت، فأنا لا أعرف ولا أريد أن أعرف أحداً من هذه الطبقة.

أطلت عليّ امرأة جميلة، بوجه صغير، وشعر أشقر منفوش وكبير، وقلائد من ذهب ترسم دوائر على النهدين يكاد ثقلها أن يكسر نحافة العنق. «تفضل يا عسل»، وهزت شعرها وابتسمت بلطف مبالغ فيه. «من أين تعرفينني؟» . «لا أعرفك». «من أين أنت؟». «من بلفيو» (منطقة غنية جداً). شككت في الأمر، وهي تبتسم وتشير أن أدخل، صوتها فيه شيء غير طبيعي ما. فجأة خطرت في بالي فكرة أنها «رجل»، وأن الشعر «باروكة» ليس إلا.. لكن كان من شبه المستحيل أن أجزم. سألتها : «هل أنت طبيعية؟». «آه، يا عسل». «وهل تشعرين بالوحدة؟». «ومنذا الذي لا يشعر بوحدة يا عسل؟».

لولا ما حدث بعد هذه الحادثة لنسيتها تماماً، ولما تذكرتها طوال حياتي. التقيت ببري بعد يومين، صباحاً، في «المخرج الأخير». كان في جيب معطفه «المارينز» كتاب ممزق، حوافه محروقة وقديمة ومبتلة، ولا غلاف عليه. قعد يدخن ويشرب القهوة وأنا أتصفح الكتاب الذي بدا لخبير من خبراء التجميل في نيويورك، مهتم بعلم «السيبرنتيكس». يجادل بأن بعض الزبائن، مثلاً، يأتون إليه لإجراء عمليات جراحية تجميلية في أنوفهم، وأنوفهم جميلة جداً، ولا تحتاج أية جراحة. ولذا توصل إلى أن جراحة التجميل لا تستطيع الإكتفاء بالمشارط والتشريح والمحاليل الكيماوية، يجب أن «تفهم» الذهن الذي «يتخيل» بأن الأنف بحاجة لعملية تجميل.

وشرد ذهني إلى ذلك اللوطي في السيارة الحمراء. وتحديداً إلى سؤال واحد : المدى الذي يستطيع فيه ذكر ما أن يذهب في «تخيل» أنه امرأة. كنت رأيت كثيراً جداً من هذا النوع في الولايات المتحدة : رجالاً غيروا شعرهم، ولباسهم، وحركاتهم، وطريقة كلامهم، وفرضوا على أنفسهم برامج نحافة قاسية، وفعلوا كل شيء ليصبحوا نساء، ومن المستحيل تقريباً تمييزهم عن النساء، ومنهم من قاموا حتى بعمليات جراحية لتغيير «جنسهم» كله. يتخيل هؤلاء «جسداً ذهنياً» آخر لهم، أنثوياً، ويقومون بكل شيء ممكن لإعادة صياغة جسمهم الفيزيائي كي يصبح على صورة جسمهم الذهني.

كنت أيامها أبحث في الجامعة مسألة الإنتحار في الدراما والرواية، كجزء من بداية

اهتمامي بـ«كيفية اشتغال الذهن المبدع»، أو «أنظمة الذهن في التاريخ»، فربطت الفكرتين معاً. الذهن الإنتحاري يختلف عن اللوطي في كونه يشبه «قنبلة موقوتة» : وضع فيه مهندسه «أمراً» ما بأن يفجر نفسه في لحظة معينة. أما اللوطي فيعيد تصميم جسمه الفيزيائي بدل أن يفجره. وخطرت في بالي فكرة ستقلب كل حياتي : الذهن له «تصميم» معين، ككل كيان آخر في الكون، وهو كيان قادر على أن يعيد تصميم نفسه وعالمه.

رميت الكتاب وسألت بري:

• «ما هو الذهن؟»

– «مسجّل. كل ما يمرّ معك وفيك يسجّل فيه.»

• «ولكنه ليس سلبياً. الأطفال يبنون بيوتاً بالرمل ويهدمونها أيضاً.»

– «نعم يا رجل، يمكن أن ترى الذهن ككيان يتكيّف».

شردت في أقواله زمناً، ثم قلت:

• «أعتقد أنه أيضاً كيان يتّسع. لنفترض أنّ البابليين تعلّموا شيئاً جديداً من بناء برج بابل، وذهنهم» سجّل «هذه المعلومة الجديدة، أو لا يعني ذلك أيضاً أنه توسع، صار أكبر؟ هيراقليطس قال بأن اللوغوس خزّان يتّسع.»

كنت مستثاراً، وأبحث عن كلمة أعمق من «يكتشف»، أو «يتّسع» أو «يتكيّف»، أو «يسجّل». وعثرت عليها: «يخلق». أعمق حاجات الإنسان هي أن يخلق. وتذكرت جملة أعتقد بأنني قرأتها في كتابات حكماء الشرق المقدسة: الذهن المتنوّر كالشمعة تنقل نورها لأية شمعة أخرى وليس ينقص رغم ذلك نورها.

لم أرَ إلهاماً في شمعة «تنقل» فقط نورها لغيرها. الذهن الذي «ينقل» أو «يحفظ» يُصاب بالشلل إن فقد ماهيته: أن يخلق، ويصير. وأزمة الذهن العربي أنه فقد هذا بالضبط: قدرته على الخلق. لا أعني فقط قدرته على «خلق عالمه»، وتصميم «الدنيا التي يحيا فيها»، بل، وهذا أهم، قدرته على تصميم نفسه، على «إعادة الصياغة»، على أن يكون عنده جديد كل ليلة، وكل ذهن فقد قدرته على تصميم نفسه سيقوم غيره بتصميمه. سميت القدرة على إعادة تصميم النفس بـ«الهندسة العليا»: وكتبت عن هذه الهندسة مطلع قصيدة «جاز شرقي»:

بيدي رميت حبيبتي للمدّ فانحسرت مع الماضي يدايْ
صارعت في الغابات أنواع نمور جرحتني جروحاً، ولما بقيت لوحدي
داست عليّ خطايْ
ما كنت أرعى الإوزّ وماعزكمْ
في جبال لكمْ
ما كنت نايْ

كنت «الفراغ» الذي في داخل الناي، من غيره لا تقدرون على الغنا أينه؟ أينكم؟
إنّ هندستي أن أُصمِّمَ نفسي وصمتي غنايْ.

ليلتها تسكّعت طويلاً في الغابة، وعاودتني رؤيا النسر: سماء زرقاء أنا تحتها نسر رمادي يحلّق عالياً، ويطير مائلاً، بسرعة فائقة، ويرى كلّ جغرافيا ذاكرتي، جغرافيا سأعيد صياغتها كلّها، ورآني النسر هنا، في ممرّات الغابة، وحدّقنا في بعضنا قليلاً، وبدا وكأنّه يتأمّلني، ثمّ واصل طيرانه، نحو ما لم أكنه بعد: فناناً في إعادة تصميم نفسي.

كنت أيامها أقرأ، للمرة العاشرة، ربّما، كتاب «رأس المال» لماركس. وذهبت لبيت برّي ليلاً، ولاحظ الكتاب معي فقال، وكنّا قاعدين في الصالون، «يا رجل! الحياة ليست تركيباً منطقياً ألمانياً. أقسم باللّه سأكتب يوماً ما كتاباً عمّا تفعله الطوائف بالعقول.»

• «هل قرأت ماركس؟»
– «نعم.»
• «ما رأيك فيه؟»
– «ليس فيه يا رجل، فالمعرفة لا شخصية.»
• «حسناً. في ما كتبه؟»
– «كتب ألغازاً يا رجل! درستها لأربع سنوات.»
• «هل فككت ألغازه؟»
– «تعلمت منه شيئاً: أن لا أفقد «حسّي» العادي بالأشياء. وفي العوالم الغريبة التي تسري روحي فيها هذا نافع، أعني لا تفقد يا حسين حسّك العادي بالدنيا.»
• «وما هذه العوالم الغريبة التي تسري فيها؟ أي أين أنت الآن؟»
– «لا جدوى ممّا لا حدس عندك بوجوده.»
• «أعني كيف يبدو لك عالمي؟»
– «لا أعرف عنك شيئاً. فعمق البحر لا يعرف شيئاً عن شواطئه. وجهك شاطئ.»

هزّتني جملة «وجهك شاطىء». تخيّلتني في مكانه، في «عمق البحر»، وأنظر نحو الشاطئ: وجهي. وصعقتني فكرة أخرى: كانت تبدأ مطاردة البحر لي في حلمي في بيروت، وأنا طفل صغير جالس على حجر في رمال الشاطئ عارياً، وملابسي بيدي، وأحدّق في البحر مذهولاً وخائفاً. كنت أرى البحر بعينيّ الطفل دائماً، ولا مرّة جرّبت فيها أن أرى الطفل بعيون البحر. كنت أرى البحر «رائعاً»، وأرى زرقته، موجه، انفصام شخصيته، رماله، استداراته، وأراه يطاردني ولكن لم أر أبداً كيف «كان البحر يراني». و«وجهك شاطئ» جعلتني أرى الطفل بعين البحر.

تخيّلتني بحراً: في أقاصيّ ضباب أزرق واسع فيه قوارب ضائعة، وموج يترامى مثل خيول من الزبد، بروعة يترامى، وفي كل الجهات، ولكن الصياغة كلها حمقاء: كيف يقنع بحر بهذه العظمة والقوّة نفسه بمطاردة طفل يحلم، أصغر من دمية بنت حمراء على شاطئه، منكمش، عار، وملابسه بيديه الصغيرتين ويخشى الموت غرقاً، كيف تقنع نفسها قوّة الكون العظمى بمطاردته؟

بدأت أدخل في شبه غيبوبة، كمن نوّم نفسه مغناطيسيّاً. وقلت:

• «بري لسنين كان البحر يطاردني، وكان وجهي شاطئاً».

– «اسبر نواياه.» قال:

– إنني أسبرها: فأنا الآن أحدق في نفسي بعين البحر. اختفى جسدي الفيزيائي وصار البحر لي جسداً، وأسري فيه روحاً في مدى. لست سمكة في البحر الآن أنا البحر، بري!

– «اسبر نواياه!». قال:

وفجأة بدأتُ أرتفع، الزرقة تنتفخ وترتفع، رويداً رويداً، وتغضب، ويعلو موجي في العمق، ويأتي من بطني، وأغواري، وكأني بطن أنثى حملت بقطيع أفاع، وشرور، وينهار فيّ الموج، لينتفخ البطن أكثر، وترتفع الزرقة: قد بدأ الفيضان وبيروت دمية!

– «اسبر نواياه، حسين، اسبر نواياه.» قال:

– كل هذا الغضب المكبوح، الفيضان، الرغبة في تدمير الدنيا، الجنون أنا وسطي لم يزل أزرق، مشمساً، واسعاً، كل هذا السطح أنا تحت سطحي من الشرور ما يجعل أمي تتمنّى لو لم تكن قد ولدتني، أفتعرف ما معنى المنفى، بري، أفتعرف ما معنى المنفى؟ هذا الطفل الهشّ الصغير، الدمية الحمراء، في بطنه بحر! وفيضانات مكبوحة!

قال: «اسبر نوايا الطفل، حسين، اسبر نواياه!»

– يغريه البحر أن يلتقي بنفسه، بغضبه الذي سنّته عليه الإلهة والشياطين والقرون الماضية، كيف يقنع بحر نفسه بمطاردة طفل يا بري؟ وإلى أيّ مدى كان يحتاج الأمان، إلهي! كم كان يلزم من القوة كي ينهش الناس قلبه، كي يخلقوا بحراً كاملاً من الغضب في بطن طفل؟ لقد اغتصبوني حتى وصلوا قلبي يا بري، أنت من قلت لي عنك : اغتصبوني حتى وصلوا قلبي، وأنا أخوك!.

كنت أبكي وأبكي، ولم أعد أذكر بعد هذه اللحظة ماذا حدث. كنت أخرج من نوبة بكاء إلى أخرى.

قال : «دموعك آخر شكل للفيضانات : الآن البحر يرشح منك على هيئة دمع.»

ونهض وأخذ يغني ويصفق ويهتف وهو يدور حولي : «تعارف طفل الجبل الذي فيك والبحر الذي فيك، وصرتما واحداً، واتّسعتَ، فطوبى لمن يتّسعون».

وأدركت بأن خوفي من أن تنفصم شخصيتي وتقوم شخصيتي الثانية باقتراف جريمة لا تعرف عنها شخصيتي الأولى ليس إلا حدساً بالبحر الذي في بطني، والموج الذي ذابت فيه كالملح كل غرائز التدمير التي خلقها اللّه أو عبيده فيّ وأنا طفل. «شخصيتي الأخرى»

هي نفس هذا البحر. كنت أخشى الفصام لأنني كنت منفصماً أصلاً! كان البحر يُطاردني لأنه أعمق وأصدق وأوسع شكل عرفه غضبي، ونواياه تدمير العالم كله.

طفل الجبل على شاطئ البحر شمعة صغيرة مضيئة في الليل يا بري : إنها حاجة البحر للأمان. والبحر رغبة الشمعة في تحويل الكون إلى حطب وبدء الحريق الأعظم. والنتيجة طفل فيه هوج البحر وبحر فيه قلق الطفل. بدأت أرى الجنون، ويحلّ لمن يرى عمقاً كهذا أن يعيد صياغة نفسه.

والغضب أبيض
ولها وردتها
تلك السيدة
فلنعطها الكون!.
كنت بئراً، ويحقّ لها، تلك البئر، أن تصبح الآن سلّماً.
ولنعطها الكون.

وسألت بري وأنا لم أزل أفيض كالبحر :

• «ما هو الجنون؟».

– «أن لا تدرك نواياك من حيث أنها نوايا».

قلت :

• «لم أفهم. كان يطاردني بحر بيروت في حلمي، لسنين يا رجل، دعني أفهم هذا.»

• «عقلي سكين من الذهب صارت حافية وأنا أحاول أن أجعلك ترى نفسك!»

– «ولكنك تتكلم ألغازاً! ماذا يعني أن أدرك نواياي من حيث أنها نوايا؟»

• «يعني أن غضبك على الدنيا، غرائز التدمير فيك، خوفك من الموت غرقاً، حاجتك للأمان، ليست إلاّ نوايا قلبك. ولكن عقلك لا يعرف ولا يفهم هذه النوايا، هذا الذي تسميه بـ«عقلك» لا يفقه شيئاً. قلبك عصر نفسه مثل ثمرة كبيرة ومرّة، كل مرارته في الدنيا عصرها في البحر، وذابت فيه كالملح، صار مذاق البحر مرّاً جدّاً. وهذا هو الفيضان: يحاول قلبك أن يأتي إليك، ويذيقك ثمرته السوداء، يريدك أن تشعر به، ويلاحقك ليعطيك البحر، ليقول لك: هذا المذاق المالح وهذه المرارة هي شعوري بالحياة.

وخلاصة عمرك!.»

• «وما الجنون؟»

– «قلبك يأتي إليك متنكّراً في هيئة بحر، فتعتقد أن قلبك هو بحر بيروت. هناك بحران: بحر بيروت وبحر قلبك. الأوّل حقيقي، والثاني بحر نواياك. وأنت تجهل الفرق بين البحرين، وهذا جهل بنواياك من حيث أنها نوايا، جنون يا رجل!»

• «وما الضمانة ضد الجنون؟»

أطرق طويلاً، وهو يلفّ لفافة تبغ ويبصق الفتات، وحلّ أثقل صمت في حياتي، ثم قال:

– «الضمانة ضد الجنون أن لا تنوي أبداً.»

بدأت أذرع صالون بيته جيئة وذهاباً، وأبكي، وأتمتم، وأبكي: «هذا لا يصدق! لا يصدق! ببساطة، لا يصدق!». كنت أرى، حرفياً، البحر في بطني: أعماق زرقاء جداً تمتد إلى ... لا أقدر على تخيّل النهاية: البحر يبدأ من بطني وينتهي، ربّما، في سواحل إيطاليا، ولا أقدر على «حمل» بطن بهذا الإتّساع. والزرقة لون نواياي؟

والطفل شمعةٌ
كيف يحتاج الأمانْ!
والبحر دمعةْ
حدّها الشطآن!
ولنعطها الوردةْ
لها كل المكانْ
هذه السيدة..

* نشر الجزء الأوّل من هذه «السيرة» في العدد السابق من الكرمل.